الأخلاق في التراث الإسلامى
ـ أخلاق العلماء عند أبي بكر الآجرّى ـ

أستاذ مساعد الدكتور: ياسين كحيا أوغلو*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدّين وبعد :

قبل أن أبدأ بتقديم مقالتى أحب أن أذكر نبذة يسيرة عن المؤلف صاحب كتاب: "أخلاق العلماء" وهو المؤلف الذى جعلت معظم آرائه حجة لبحثى ومنها إقتبست جلّ أفكارى فى مسئلة أخلاق العلماء.

المؤلف هو: محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكرالآجرّى: فقيه شافعي محدث. نسبته إلى آجر من قرى بغداد ولد فيها[1]. وكان صدوقا خيّرا عابدا صاحب سنة واتباع. رَوى عن أبى مسلم الكَجّى وأبى شعيب الحرّانى وأحمد بن يحى الحُلوانى والمفضل بن محمد الجندى، وخلقٍ كثير من أقرانهم. حدّث ببغداد قبل سنة ثلاثين وثلاثمائة، ثم إنتقل الى مكة فسكنها حتى توفى بها[2]. رَوى عنه جماعةٌ من الحُفاظ منهم أبو نُعيم الأصبهانى صاحب كتاب (حلية الأولياء) وغيرُه.

رُوى أنه لما دخل إلى مكة أعجبته، فقال: اللهم ارزقنى الإقامة بها سنة، فسمع هاتفا يقول له: بل ثلاثين سنة، فعاش بعد ذلك ثلاثين سنة، ثم مات بها سنة ستين وثلاثمائة. قال الخطيب: قرأت ذلك على بلاطة قبره بمكة.[3]

مكانته العلمية

اتفق المؤرخون على إمامته في الفقه والحديث مع صلاحه وورعه وزهده.

قال الذهبي: الإمام المحدث القدوة، شيخ الحرم الشريف.

قال الخطيب: كان الآجُرِّي ثقةً صدوقاً له تصانيف.

وقال السيوطي: كان عالماً عاملاً صاحب سنة رحمه الله تعالى.

مصنفاته:

لهّ تصانيف كثيرة منها:

- حسن الخلق

- كتاب الأربعين حديثا

---

* **كلية الإلهيات جامعة حران**

e-mail: ykahyaoglu@hotmail.com

1 خير الدين الزركلى، الأعلام قاموس تراجم: 97/6

2 أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى، البداية والنهاية: 11/ 288

3 إبن حلكان، وفيات الأعيان،: 292/4

- أخبار عمر بن عبدالعزيز
- أخلاق حملة القرآن
- التفرد والعزلة
- ما ورد فى ليلة النصف من شعبان
- التصديق بالنظر إلى الله عز وجل وما أعدّ لأوليائه
- تغير الأزمنة
- أحكام النساء
- أخلاق العلماء
- كتاب الشريعة
- الغرباء من المؤمنين
- تحريم النرد والشطرنج والملاهى
- أدب النفوس

وله العديد من المصنفات الأخرى منها: " النصيحة" و " الشبهات" و " أداب العلماء" و "مسألة الطائفين" و" التهجد" و" فرض العلم" و " صفة قبر النبي صلي الله عليه وسلم" و" مختصر الفقه". [1]

تقديم

أتناول فى مقالتي هذه جانبا من أخلاق العلماء فى التراث الإسلامى بشيء من النصوص الواردة فى ذلك. مبينا فضل العلماء وأخلاقهم فى هذا التراث العريض الذى أمتدت فضائله العظيمة وقيمه الخلقية مشارق الأرض ومغاربها منذ أول يومه والى يومنا هذا. مستدلا فى ذلك بما يرى: أبو بكر الآجرّى رحمه الله فى كتابه المسمى (أخلاق العلماء) المتوفى سنة: 360 هجرية.

أقول وبالله التوفيق: لا شك أن علم الأخلاق؛ هو علم يوضح معنى الخير والشر، ويبين ما ينبغى أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضا، ويشرح الغاية التى ينبغى أن يقصدها الناس فى أعمالهم . كما أن موضوعه يبحث فى أعمال الناس فيحكم عليها بالخير أو الشر.[2]

إنطلاقا من هذا المبدأ؛ نرى أن الإسلام يعطى أهمية خاصّة للأخلاق الكريمة، بوصفها الأساس الصالح لحسن صلة الإنسان بربه، وطيب تعامله مع أخيه الإنسان، وتمام إنسجامه مع نفسه. ولا شك أن الأخلاق هى الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم والحضارات. لهذا السبب نرى الباحثين والفلاسفة قد إتفقت كلمتهم على ضرورتها للفرد والمجتمع. ومن أجل ذلك كانت رسالة الأنبياء جائت تحث على الأخلاق الفاضلة. وقد جاء القرآن الكريم أيضا بمبادىء الأخلاق العالية الشريفة وشدد على الإستمساك بها. لأنها هى التى تحقق السعادة فى الدنيا والفوز بالنعيم الأبدى.

إن الفضائل الأخلاقية التى أمر بها القرآن الكريم هى الفضائل الإنسانية الحقة التى أجمع دعاة الإصلاح فى العالم على المناداة بها، والتى لوعمل بها الناس لحصلوا على أعظم الخير لعالمهم المتحير والمضطرب. كذلك الرذائل التى نهى عنها القرآن هى سبب الخصام والعداوة بين الناس. وهى التى لا يشك فى ضررها أى مخلص يبتغى الخير للإنسانية.[3]

لا شك أن الأخلاق الفاضلة، والصفات الحميدة، والقيم الخلقية التي ينبغى أن يتحلى بها المرء المسلم فى حياته، فضلا عن العلماء؛ إنما مصدرها الحقيقى نظريا هو الإسلام، وعمليا هو الرسول عليه أفضل السلام .

---

1 إبن حلكان، السابق: 292/4؛ الزركلى، السابق: 6/ 97

2 أحمد أمين، كتاب الأخلاق: 12

3 عفيف عبد الفتاح طبّارة، روح الدين الإسلامى: 204- 205

1- فضل العلماء

قال أبو بكر الآجرّى رحمه الله: إن الله تعالى إختص من خلقه من أحب، فهداهم للإيمان. ثم إختص من سائر المؤمنين من أحب، فتفضل عليهم فعلّمهم الكتاب والحكمة، وفقههم فى الدين، وعلّمهم التأويل، وفضّلهم على سائر المؤمنين، وذلك فى كل زمان وأوان. رفعهم بالعلم وزينهم بالحلم، بهم يعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح. فضلهم عظيم وخطرهم جزيل، وهم ورثة الأنبياء. والعلماء فى القيامة بعد الأنبياء تشفع. مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة. حياتهم غنيمة وموتهم مصيبة. يذكرون الغافل ويعلّمون الجاهل. جميع الخلق إلى علمهم محتاج. فهم سراج العباد ومَنَارُ البلاد وقِوامُ الأمة وينابيع الحكمة. بهم تحيا قلوب أهل الحق وتموت قلوب أهل الزيغ. مَثَلُهم فى الأرض كمثل النجوم فى السماء يُهْتدى بها فى ظلمات البر والبحر.[1]

إن فضل العلماء عظيم الى هذا الحد، ومكانتهم رفيعة الى هذه الدرجة فى نظر الإسلام وتراثه الحضارى، الذى ما جاء إلاّ لإسعاد البشرية، وإنقاذها من الرذائل.

قال تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات .)[2] وعد الله تعالى فى هذه الآية المؤمنين أن يرفعهم، ثم خص العلماء منهم بفضل الدرجات. أى ويرفع درجات العلماء منهم خاصة.[3]

وقال: (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون). [4] أى لا يستويان .

وقال تعالى: (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء)[5]

كل هذه الآيات وغيرها تدل دلالة واضحة على رتبة العلم وفضل العلماء، ومكانتهم العالية فى إصلاح الناس والمجتمع الذى يعيشون فيه. وأما ما جائت فى فضلهم فى الدنيا والآخرة من السنن والآثار: فهى كثيرة أيضا. نذكر منها جانبا يسيرا على سبيل البيان. فقد قال عليه الصلاة والسلام فى فضلهم:

- عن أنس بن مالك رضى الله عنه يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن مَثَلَ العلماءِ في الأرض كمثل نجوم السماء، يُهتدى بها فى ظلمات البرّ والبحر، فإذا انطمستِ النجومُ يوشِكُ أن تَضِلَّ الهُداةُ.

- وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين[6].

فلما أراد الله تعالى بهم خيرا فقّههم فى دينه وعلمهم الكتاب والحكمة. وصاروا سراجا للعباد ومنارا للبلاد. وهكذا دورالعلماء فى الناس. لا يعلم كثير من الناس كيف أداء الفرائض ولا كيف إجتناب المحارم، ولا كيف يَعبُدُ اللهَ فى جميع أوامره ونواهيه. إنما سبيل ذلك ببقاء العلماء. فإذا مات العلماء تحير الناس، وظهرالجهل بينهم. وهذه مصيبة على المسلمين ما بعدها مصيبة.

- روى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة.

لأنه معالم الحلال والحرام، والأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الخلوة، والدليل على السرّاء والضرّاء، والزين عند الأخلاء، والقرب عند الغرباء. ولأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف. يبلغ به العبد منازل الأحرار ومجالسة الملوك، والدرجاتِ العلى فى الدنيا والآخرة. وبه يطاع الله عز وجل ويعبد. وبه يُعْرف الحلال من الحرام.

يتبين من كل هذا: من أن العلماء فى كل حال لهم فضل عظيم. فقد جمع الله تعالى لهم الخير من جهات كثيرة ومن نواح مختلفة. وما ذلك إلاّ أن دورالعلماء خطير ومسؤليتهم كبيرة دينا ودنيا. وبتعبير آخر: إن الإسلام أمانة فى أعناقهم ومسؤلية على عاتقهم. فعليهم أن يقوموا بهذه الأمانة العظيمة. لأن بصلاحهم يصلح الناس والمجتمعات، كما أن بفسادهم

---

1 أبوبكر بن الحسين الآجرى، أخلاق العلماء: 5-6

2 المجادلة : 11

3 إرشاد العباد إلى سبيل الرشاد، زين الدين الملیبارى، ص: 8

4 سورة الزمر ، آية : 9

5 فاطر : 28

6 البخارى عن معاوية

يفسد الناس والمجتمعات. فكما قال عليه السلام فى هذا الباب بأدق التعبير وأوضح البيان: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء[1]. إذا نظرنا إلى ما حولنا فى العالم؛ نرى أن العالم الإسلامي اليوم فى أشد حاجة إلى الإصلاح من نواح كثيرة، ماديا أم كان معنويا. فلا بد للعلماء من تحديد مواقفهم وسؤالهم أنفسهم: هل يقومون بأداء واجبهم نحو الأمة الإسلامية، ونحو هذا التراث العظيم الذى تركه لنا القرآن المبين ونبيه الكريم، أو هل يؤدون ما عليهم من واجبات لمستقبل الإسلام وحاضره، كما أمره الله تعالى؟

لا يخفى عن السمع والبصر؛ إن قضايا المسلمين ومشاكلهم تتراكم يوما بعد يوم. وهى بحاجة الى الحل والوقوف أمامها. وهذا من ضمن مسؤلية العلماء. فعليهم أن لا يختلفوا فيما بينهم فى قضايا المسلمين وفى حل مشاكلهم، وإن اختلف غيرهم ممن لا يبالون بتلكم القضايا وحلها. لأن الإختلاف يفتح الأبواب للأعداء لبث الفرقة والشقاق بين المسلمين. فإذا كان أهل الباطل قد إتفقوا على باطلهم وتناسوا خلافاتهم، فهل يليق بالمسلمين وهم أهل الحق والتوحيد أن يختلفوا فيما بينهم؟ لا شك أن واقع الأمة الإسلامية اليوم يحتم عليهم كافة وعلى علمائهم خاصة أن يبذلوا قصارى جهودهم وكل ما فى وسعهم من أجل توحيد الصف، ولأجل مستقبل الأمة الإسلامية[2]. إذا نظرنا الى ما فضل الله به العلماء وما خصهم به من خلال النصوص الكثيرة التى وردت فى التراث العربى والإسلامى، نجد أن فيها بلاغا لمن تدبّرها. وألزَمَ نَفْسَهُ للحصول على هذه الثروة العظيمة ليكون معهم فى الفضل والأجر بتوفيق الله تعالى. وبذلك قد إتضح لنا أوصاف العلماء وأخلاقهم. فمن تدبرها من أهل العلم راجع إلى نفسه. فإن كان منهم شكر الله على ما خصه به، وإن لم تكن أوصافه منهم وكان ممن علمه حجة عليه إستغفر الله تعالى ورجع إلى الحق والصواب من قريب والله ولى التوفيق.

فإن قال قائل: لماذا إهتم الإسلام بالأخلاق كل هذا الإهتمام؟ ولماذا جعلها مصدراً أساسيا لسعادة الفرد والمجتمع؟ لا شك أن سبب ذلك هو أن الأخلاق ليست سبب سعادة الإنسان فى الدنيا فحسب، بل هى أساس السعادة، وأصل العزة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة.

إذا كنا لا نشك فى أن الإسلام إنما جاء ليتمم مكارم الأخلاق، علمنا أن إتصاف الشخص بالأخلاق الحميدة سيجعله لا محالة من المحبوبين المحترمين بين أفراد مجتمعه. ومن هنا نوه الإسلام بالخلق الحسن، ودعا إلى تربيته فى المسلمين، وتنميته فى نفوسهم. وأثنى الله تعالى على نبيه الكريم بحسن خلقه فقال: (وإنك لعلى خلق عظيم)[3] . وجعل الأخلاق الحميدة سببا من الأسباب التى تنال بها الدرجات العالية فى الجنة. وكفى صاحبها أن يكون بجوار الرسول الكريم فى دار الخلد والنعيم. مع الصدّقين والشهداء والصالحين. فهل بعد هذا عزّ يدانيه، أو شرف يضاهيه؟ فما أعظم مكانة المتخلقين بحميد الخصال الذين أشاد بهم القرآن الكريم وأثنت عليهم السنة النبوية الكريمة. [4]

2 - أخلاق العلماء

يجب أن نلفت أنظارنا هنا الى بعض أوصاف العلماء الذين نفعهم الله بالعلم فى الدنيا والآخرة، لنكون على حق ويقين من سيرتهم النموذجية. فإنَّ لمثل هذا العالِم صفات وأحوال شتى، ومقامات لا بد من الوقوف عليها. فهو مستعمل في كل حال ما يجب عليه.

أبرز نقاط فى أخلاق العلماء:

للعالم أخلاق في طلب العلم كيف يطلبه. وله أخلاق فى كثرة العلم إذا كثر عنده، ما الذى يجب عليه فيه. وله أخلاق إذا جالس العلماء كيف يجالسهم. وله صفة إذا تعلم من العلماء كيف يتعلم. وله أخلاق كيف يعلِم غيره. وله أخلاق إذا ناظر في العلم كيف يناظر. وله أخلاق إذا أفتى الناس كيف يفتى. وله أخلاق كيف يجالس الأمراء إذا ابتلى بمجالستهم. ومن يستحق أن يجالسه ومن لا يستحق. وله أخلاق عند معاشرته لسائر الناس ممن لا علم معه. وله أخلاق كيف يعبد الله عز وجل فيما بينه وبين خالقه. إن عالما كهذا قد أعد العدّة فى نفسه لكل حق يلزمه القيام به. وقد أعد لكل نازلة ما يَسْلَمُ به من شرها فى دينه. فهذا عالم بما يُجْتَلَبُ به الطاعاتُ، وعالم بما يُدْفَعُ به البلِيّاتُ، وقد إعتقد الأخلاق السَّنِيَّة واعتزل الأخلاق الدَّنِيَّة.

لقد اختار الله تعالى العلماء ليضع في أعناقهم أثقل الأمانات، فكلفهم بمهمة الأنبياء والصالحين قائلا: (ولكن

---

[1] الجامع الصغير : 46/1

[2] باسين كحيا أوغلو، مسؤلية العلماء، التربية الإسلامية، ص: 22 1996 بغداد

[3] سورة القلم : 4

[4] عبد الوهاب التازى سعود، الأخلاق الإسلامية، منشورات إيسيسكو ص: 65- 67

كونوا ربانيين بما كنتم تُعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)[1] وقلدهم الله أخطر الأمور وجعلهم بمنزلة المجاهدين في سبيل الله؛ مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم، فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: "من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يُعلِّمُه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جائه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره".

إمتحان العلماء

ويمتحن الله عز وجل العلماء في علمهم وما عملوا به، ويبتليهم في شأنهم؛ هل قصدوا بعلمهم هذا وجهَ الله تعالى أم لا؟ وهل تعلموا العلم لينالوا به شرفا في الدنيا، ومنزلة في قلوب الخلق، وجاها عند الوجهاء فحسب؟ وهل طلبوا بعلمهم الدنيا أم الآخرة؟ وهل العلم بالنسبة لهم وظيفة يتكسبون من ورائها المال، أم هو رسالة أوجب الله عليهم توصيلها لأهلها؟[2]. يقول أبو يوسف صاحب أبي حنيفة: "يا قوم، أطلبوا بعلمكم وجه اللهَ؛ فإني لم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوَهم، ولم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أعلوَهم إلا لم أقم حتى أفتَضِحَ ". وينبغي للعالم أن يتخلق بكل خلق حسن، فيكون زاهدا في الدنيا جاعلا إياها في يده، لا في قلبه ولا في عقله؛ ليحافظ على هيبته ودينه ومكانته، فلا يطمع إلا فيما في يد الله، ولذلك وصى الرسول عليه السلام؛ الرجلَ الذي طلب منه أن يدله على عمل إذا عمله أحبه الله وأحبه الناس بالزهد، فقال له: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس" [3].

لقد قيل في الحكم العطائية:

أنت حرّ مما أنت عنه آيس وعبدٌ لما أنت له طامع[4]

ومن أخلاق العالم: أن يكون طليق الوجه حليما صابرا، ملازما للورع والتواضع والوقار. وعليه أن يتجنب أيضا ما يُذْهب المروءة ويزيل الهيبة؛ وأن يحافظ على مظهره الخارجي، ويهتم بنظافة جسمه. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله جميل يحب الجمال"[5]. ويجب عليه أيضا الابتعاد عن الحقد والحسد والإعجاب بالنفس، لأن العُجْبَ نقص ينافى الفضلَ.[6] كما يَحْرُم عليه أن يغتر بثناء الناس عليه؛ وإنما يتواضع وينشغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. وهناك فارق كبير بين التواضع وبين التبذل من أجل المال؛ فالعالم عزيز النفس وإن كان ذا مال قليل.

ومن أخلاقه: أنه يَحْرص على تحصيل العلم، وإن اقتضى سفرُه إلى البلدان التي فيها أهلُ العلم والفضل والتَّخَصُّص. وذلك بهدف الانشغال الدائم بالعلم النافع، واستحضاره، واستذكاره، والتعمق فيه، ومطالعةِ التَّخَصُّصات القريبةِ، حتى يتحقق التميز المطلوب لعزِّ الإسلام والمسلمين.[7]

ومن أخلاقهم ألا يستنكفوا عن التَعلُّم ممن هو دونهم في المنزلة أو السن أو العقل، وإنما لهم في كل شيء عظة وعبرة وفكرة.

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: "لا يزال الرجل عالما لما تعلم، فإذا ترك العلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون".

وقال الإمام النووي رحمه الله: " كان كثير من السلف يستفيدون من تلامذتهم ما ليس عندهم".

وقيل للخليل بن أحمد: بم أدركت هذا العلم؟ قال: كنت إذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيت[8].

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم العلماء إلى التعلم ممن هو نظير، وممن ليس بنظير. وألا يمنع الكبرُ أو الحياءُ من التَعلُّم ممن هو أقل في المنزلة. فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لأُبَي بن كعب رضي الله عنه: "أمرني الله

---

1 آل عمران: 79

2 د.علاء السيوفي www. Islamonline.net

3 حديث صححه السيوطي .

4شرح الحكم العطائية، عبد المجيد الشرنوبى، ص: 63

5 أخرجه مسلم

6 أبو الحسن الماوردى، أدب الدنيا والدين، ص: 80

7 من أخلاق العلماء، د.علاء السيوفى www.Islamiconline.net

8 أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردى، ص: 83

أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا" [1]. وليس من المعقول فى هذه الرواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على أبيّ ليزداد حفظا وإتقانا. وإنما المقصود؛ كما قال المفسرون: هو تعليم الأمة بطريق القدوة ولتعليم الناس التواضعَ.[2] وهذا يفيد انشغال العالم الراسخ فيما ينفع نفسه وأهله ومجتمعه ووطنه، بل ما ينفع البشرية من علوم، فلا ينفك يستزيد من العلم ويتعمق فيه لتكون مساهماته أوقع وأنفع.

ومن أخلاقهم أيضا: ألا يحبسوا العلم وإنما يبذلونه لأهله، ويعلّمونه لمن صدقت نيته في تعلمه، ويحرصون على إحياء العلم بالعمل به، والبحث عن الأبناء الصالحين الصادقين في طلب العلم لوجه الله تعالى؛ فيهتمون بأمر تعليمهم، لكي ييسروا لهم النبوغ في العلم مع العمل. ومن المفيد أن نذكر هنا حكاية تتعلق بعالم راسخ وهو الحسن البصري رحمه الله. حينما جائه الرقيق وطلبوا منه أن يُكلم الناسَ في خطبة الجمعة عن فضل عِتق الرّقاب؛ إذ كان الناسُ وقتئذ يَقبلون منه ما لا يقبلون من العلماء. ولكن البصري قام في الجمعة الأولى فلم يتكلم في هذا، وفي الثانية لم يتكلم، وفي الجمعة الثالثة تكلم فأحسن في فضل عتق الرقاب. فخرج الناس من المسجد فأعتقوا من كان عندهم من الرقيق، فجاء الرقيق المحرّرون لوجه الله تعالى، يشكرون الحسن ويقولون: "أبطأتَ علينا ثلاثَ جُمع، فقال: لقد انتظرت حتى رزقني الله مالا، فاشتريت عبدا وأعتقته لوجه الله تعالى؛ حتى لا آمر الناسَ بما لم أفعل".

فمِنْ خلقه فى طلب العلم: أنه يعلم أن الله عز وجل قد فرض عليه عبادته. والعبادة لا تكون إلا بعلم. وبذلك عَلِم أن العلم فريضة عليه. وعلم كذلك أن المؤمن لا يَحسُنُ به الجهل. فطلبَ العلمَ لينفى عن نفسه الجهل. وليعبد الله تعالى كما أمره.

وفى مشيه إلى العلماء أخلاق : بحيث يمشي إليهم برفق وحلم ووقار وأدب. مكتسب فى مشيه كل خير. تارة يحب الوحدة فيكون للقرآن تاليا، وتارة بالذكر والفكر مشغولا. وتارة يحدث نفسه بنعم الله عز وجل عليه ويقتضى منها الشكر. يستعيذ بالله من شر سمعه وبصره ولسانه وشيطانه. فهو خائف على نفسه أن يشتغل بغير الحق. كما يحذر كل الحذر من عدوه الشيطان كراهية أن يزيّن له قبيح ما نُهى عنه. يكثر الإستعاذة بالله من علم لا ينفع، ويسئله علما نافعاً. همه فى تلاوة كلام الله العلىّ القدير الفهم عن الله فيما أمر ونهى. وفى حفظ السنن والأثار والفقه لئلا يضيع ما أمر به.

وفى مجالسته مع العلماء أخلاق عالية: فإذا أحب مجالسة العلماء جالسهم بأدب وتواضع فى نفسه، وخفض صوته عند صوتهم، وسئلهم بخضوع. فإذا إستفاد منهم علما أعلمهم بأنه قد أفاد خيرا كثيرا ثم شكرهم على ذلك. وإن غضبوا عليه لم يغضب هو عليهم، بل نظر إلى السبب الذي من أجله غضبوا عليه، فرجع عنه واعتذر إليهم. لا يناظرهم مناظرة من يريهم أنه أعلم منهم. وإنما همته البحث لطلب الفائدة منهم مع حسن التلطف لهم. كذلك لا يجادل العلماء ولا يمارى السفهاء. يُحسِنُ التأنّى للعلماء مع توقيره لهم حتى يتعلم ما يزداد به عند الله فهماً فى دينه. فإذا نشر الله له الذكر عند المؤمنين أنه من أهل العلم واحتاج الناس الى ما عنده من العلم ألزم نفسه التواضع لهم.

ومن أخلاقه: أنه لا يطلب بعلمه شرف منزلة عند الملوك ولا يحمله إليهم. صائن للعلم إلاّ عن أهله. يتواضع للفقراء والصالحين ليفيدهم العلم. وإن كان له مجلس قد عُرف بالعلم ألزم نفسه حسن المداراة لمن جالسه. والرفقق بمن سائله، واستعمال الأخلاق الجميلة، ويتجافى عن الأخلاق الدنية. يؤدب جلسائه بأحسن ما يكون من الأدب، فإن تخطى أحدهم إلى خُلُقٍ لا يَحسُنُ بأهل العلم لم يجبه فى وجهه على جهة التبكيت له ، ولكن يقول: لا يحسن بأهل العلم والأدب كذا وكذا، وينبغى لأهل العلم أن يتجافوا كذا وكذا. يسكت عن الجاهل حلماً وينشر الحكمة نصحا. فهذه جملة صفاته وأخلاقه لأهل مجلسه وما شاكل هذه الأخلاق.

أصله المعتمد فى المسائل: الكتاب والسنة، وما كان عليه الصحابة ومَن بعدهم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين. يأمر باللإتباع وينهى عن الإبتداع ، لا يجادل العلماء ولا يمارى السفهاء. يتلو كلام الله بالفهم، وينظر إلى سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم للفقه. مذكر للغافل ومعلّم للجاهل. يضع الحكمة عند أهلها ويمنعها مَن ليس بأهلها. مثله كمثل الطبيب يضع الدواء بحيث يعلم أنه ينفع.

وكذلك قال الآجرّى رحمه الله فى معاشرة العلماء مع الآخرين: من كانت صفاته فى علمه ما تقدم وما ذكرناه: سوف يطمئن ويأمن شرَّالعالمِ مَنْ خالطه، ويأمل خيرَه مَنْ صاحَبَه. إن العالم لا يؤاخِذ بالعثرات ولا يُشيع الذنوبَ عن غيره، ولا يُفشي سر من عاداه ولا ينتصر منه بغير حق، ويعفو ويصفح عنه. ذليل للحق عزيز عن الباطل، كاظم للغيظ عمن آذاه، شديد البغض لمن عصى مولاه. يجيب السفيه بالصمت عنه، والعالمَ بالقبول منه، لا مداهنٌ ولا مشاحن ولا مختال ولا حسود ولا حقود ولا سفيه ولا غليظ ولا لعّان ولا مغتاب. يخالط من الإخوان من عاونه على طاعة ربه ونهاه

---

[1] رواه البخاري ومسلم .

[2] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبى، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 139

عما يكره مولاه. سليم القلب للعباد من الغل والحسد، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين فى كل ما أمكن فيه العذر. لا يحب زوال النعم عن أحد من العباد، الناس منه في راحة. إذ جعله الله وارث علم الأنبياء وقرة عين الأولياء وطبيبا لقلوب أهل الجفاء.

ومن أخلاقه فيما بينه وبين ربه عز وجل: أن يكون لله شاكرا، وله ذاكرا دائم الذكر بحلاوة حب المذكور، منعم قلبه بمناجاة الرحمن. يمشى على الأرض هونا بالسكينة والوقار، ومشتغل قلبه بالفهم والإعتبار. إن فرغ قلبه عن ذكر الله فمصيبة عنده عظيمة. وإن أطاع الله عز وجل بغيرحضور فخسران عنده مبين.[1]

- قال أبو الدرداء رضى الله عنه: ويل للذى لا يعلم مرة وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرّات .

- وقال إبن عيينة: إذا كان نهارى نهارُ سَفِيهٍ وليلى ليلُ جاهلٍ فما أصنع بالعلم الذى كتبت.

- فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال : من لم يُقنِطِ الناسَ من رحمة الله، ولم يُرَخِّص لهم فى معاصى الله، ولم يؤَمِّنهُم مكر الله، ولم يترك القرآن إلى غيره (رغبة إلى ما سواه) ، ولا خير فى عبادة ليس فيها تفقّه، ولا خير فى تفقه ليس فيه تفهم، ولا خير فى قرآءة ليس فيها تدبّر. وزيادة على ذلك فهو: زاهد في الدنيا وراغب فى الآخرة، بصير فى أمر دينه، مداوم على طاعة الله.

ومن وأخلاقهم الحميدة: أنهم عِباد أسكنتهم خشية الله، من غيرعىّ ولا بكم، وأنهم النبلاء الفصحاء الطلقاء الألباء العالمون بالله وآياته، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله إنقطعت قلوبهم وكلّت ألسنتهم وطاشت عقولهم وأخلاقهم، خوفا من الله، وهيبة له. وإذا استفاقوا من ذلك إستبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية لا يستكثرون لله الكثير، ولا يرضون له بالقليل يَعُدّون أنفسهم مع الخاطئين. فإن قيل: ولِم هذا الإشفاق الشديد منهم؟ خافوا من علمهم كلَّ هذا الخوف؟ قيل: إنهم علموا أن الله تعالى يسائلهم عن علمهم ما عملوا فيه، فجعلوا مسائلة الله نصب أعينهم، فألزموا أنفسهم شدة الحذر، وأخذوا بالثقة فى كل أمرهم.

العلم يقتضى العملَ:

إن العلم أمانة كبيرة، سوف يسئل الله تعالى صاحبه عن هذه الأمانة يوم القيامة. ماذا عمل فيه. لقد ورد الحديث بذلك. "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسئل عن أربع خصال. ومنها : عن علمه ماذا عمل فيه" . ولهذا السبب قال : أبو الدرداء رضى الله عنه: إن أخوف ما أخاف إذا وقفتُ على الحساب، أن يقال: قد علمتَ فماذا عَمِلتَ فيما علِمتَ؟

قال بعض العلماء: ثمرة العلم أن يُعْمَلَ به، وثمرة العمل أن يؤجَرَ عليه.

وقال بعض الصلحاء: العلم يهتفُ بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل .

وقال بعض الحكماء: خير العلم ما نفع، وخير القول ما رَدَعَ. [2]

وكذلك قال الجاحظ: إن الله تعالى لم يعلّم الناس ليكونوا عالمين، دون أن يكونو عاملين، وإنما عَلّمَهم ليعملوا.[3] فهناك رواية لطيفة تُذكر بهذا الخصوص؛ كما حدّثَ به عطاء رضى الله عنه قال: كان فتى يختلف إلى أم المؤمنين فيسألها وتحدثه، فجاء ذات يوم يسألها، فقالت: يا بُنىَّ ! هل عملتَ بما سمعتَ؟ فقال لا والله يا أمّاه، قالت: يا بُنىَ ففيم تستكثر من حُجج الله علينا وعليك؟ .

وقيل فى علامات حسن الخلق وفى صاحبه: [4] أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الفضول، بَراً وَصولاً، وقورا صبوراً، شكورا رضيا حليما، وفيا عفيفا، لا لعّانا ولا سبّابا ولا مغتابا، ولا عجولا ولا حقودا، ولا بخيلا ولا حسودا، بشّاشا هشّاشا، يحب فى الله ويبغض فى الله، ويرضى فى الله، ويسخط لله.

أخلاق العالم الذى لم ينفعه علمه:

هناك أخبار قد وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن صحابته الكرام رضى الله عنهم، وعن أئمة المسلمين

---

1 الآجرّى، أخلاق العلماء، ص: 46 - 47

2 أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردى، ص: 85

3 رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، 163/3

4 عبد الوهاب التازى سعود، الأخلاق الإسلامية، ص : 65- 67

رحمهم الله، بصفة علماء فى الظاهر الذين لم ينفعهم الله بالعلم ممن طلبوا العلم للفخر والرياء والجدل، لينالوا به الدنيا، فهم ينسبون أنفسهم الى العلماء. وهم فى الحقيقة فتنة لكل مفتون، لسانهم لسان العلماء، وعملهم عمل السفهاء، واتبعوا هواهم وتعاظموا فى أنفسهم وتجبروا، ولم يؤثر العلم فى قلوبهم أثرا يعود عليهم نفعه، وكانت أخلاقهم فى كثير من أمورهم أخلاق أهل الجفا والغفلة. هذه الأخلاق وما يشبهها تغلب على قلوب من لم ينتفعوا بالعلم. فهؤلاء هم الذين رغبت نفوسهم فى حب الشرف والمنزلة ، فآثروا الدنيا على الآخرة. فالويل لمن أورثه علمه هذه الأخلاق. هذا العالم الذى إستعاذ منه النبى صلى الله عليه وسلم وأمر أن يستعاذ منه، حيث قال: إنّ أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه.

وهناك صنف من العلماء يكون علمهم حجةٌ عليهم. فهؤلاء طلبوا الدنيا بعمل الآخرة، وطلبوا الكلام ليحدثوا به ولا يطلبونه ليعملوا به. فهؤلاء تجملوا بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه.

قال الآجرّى رحمه الله: فلو أدَّبَ العلماءُ أنفسَهم وغيرَهُم بالأخلاق الحميدة والصفات المحمودة التى كان عليها مَمن مضى من أئمة المسلمين، لأنتفعوا بها وانتفع غيرُهم وبارك الله لهم فى قليل علمهم وصاروا أئمة يُهتدى بهم.

قول لا أعلم: وأما الحجة للعالم يُسألُ عن الشىء لا يعلمه فلا يستنكف أن يقولَ لا أعلم، إذا كان لا يعلم. وهذا طريق أئمة المسلمين، إتّباعا فى ذلك ببيهم صلى الله عليه وسلم. لأنه اذا كان سُئِلَ عن الشىء مما لم يتقدمْ له فيه علم الوحى من الله تعالى فيقول لا أدرى. وهكذا يجب على كل مَن سُئِل عن شىء لم يتقدم فيه العلم أن يقول: أللهُ أعلمُ به، ولا علم لى به. ولا يتكلف فيما لا يعلمه. قال تعالى: (قل ما أسئلُكمْ عليه مِنْ أجْرٍ وما أنا من المتكلّفين).[1]

بهذه النصوص الكثيرة وغيرها، يضعنا الإسلام أمام نموذج عظيم، متمثل فى بناء الشخصية الإسلامية المثالية، وبناء المجتمع المسلم القائم على الفضيلة، المبنى على دعائم التقوى والصلاح. وفى هذه النصوص والآثار الواردة؛ إرشاد كبير وتوجيه عظيم؛ يبين لنا مكانة المؤمن العالم المتخلق بالأخلاق الكريمة والصفات المحمودة التى هى من أهم مقاصد الإسلام. فحسن الخلق سياج الأمم، ومعيار تقدمها ورقيها. وعنوان عظمتها وخلودها. إذ الأمم لا تحيا بدون أخلاق، ولا تعيش بغير أدب. وهذا ما عبر عنه أمير الشعراء أحمد شوقى حين قال:

إنما الأمم الأخلاقُ ما بقيتْ فإنْ هُمُ ذهبَتْ أخلاقُهمْ ذهبوا

والرسول الكريم هو المثل الأعلى فى حسن الخلق وهو يقول:

- أدّبنى ربى فأحسن تأديبى.

- إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

- ويقول: أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلُقا[2].

المصادر

- وفيات الأعيان، شمس الدين أحمد بن بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، 1971 بيروت .

- الأعلام قاموس تراجم، خير الدين الزركلى، 1995 بيروت .

- رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجى، 1964 القاهرة .

- البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى، دار الريّان للتراث، 1988 القاهرة .

- كتاب : أخلاق العلماء، أبوبكر الآجرّى، محمد بن الحسين بن عبد الله، دار الكتاب العلمية، 1985 بيروت .

[1] سورة ص، آية: 86

[2] رواه الترمذى .

- روح الدين الإسلامى، عفيف عبد الفتاح طبّارة،دار العلم للملايين، الطبعة : 20 ، 1980 بيروت .

- الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي، دار الفكر، بدون تاريخ بيروت .

- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبى، دار الفكر، 1987 بيروت .

- مجلة التربية الإسلامية، العدد السادس، السنة الثالثة والثلاثون، 1996 بغداد .

- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري الماوردى، تحقيق: مصطفى السّقا، دار الفكر،1955 القاهرة .

- الأخلاق الإسلامية، عبد الوهاب التازى سعود، مراجعة: محمد المكى الناصرى، منشورات إيسيسكو، 1991 الرباط .

- الموقع في الإنتيرنت : (www. Islamonline.net) .

- موسوعة أحمد أمين الأدبية، أحمد أمين، دار الكتب العربي ، 1974 بيروت .

- مواهب الخلاق فى محاسن الأخلاق، أبو الهاشم السيد على الآوادوري البدوى الحسينى، 1425 صنعاء .

- إرشاد العباد الى سبيل الرشاد، زين الدين بن عبد العزيز بن زين الدين إبن على المعبرى المليبارى، دار المعرفة، بدون تاريخ بيروت .

- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين على بن حسام الدين البرهان فورى، تحقيق: بكرى حيانى – صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ط: 5 ، 1981/ 1401

- شرح حكم عطاء الله سكندرى، عبد المجيد الشرنوبى، دار إبن كثير للطباعة والنشر، ط2 1989 بيروت .